الباب الثاني

في

المستوى النحوي

في تحديد المصطلحات

عرضنا في الفصلين السابقين للبنية الصرفية في المستوى الصرفي؛ أي في المستوى الذي يُقْتَصرفيه على وصف أنواع الأبنية، وهيْئاتها، وأقسامها، وتحولاتها المختلفة، وصورها المتنوعة. وحاولنا في أثناء ذلك أن نرصد أهم الضوابط التي أقيم عليها علم الصرف في العربية، سواء كان ذلك في تقسيم الكلام، أو في صوغ أبنيته المختلفة، أو في التحوّلات الصوتية التي قد تطرأ عليها؛ هادفين إلى بناء تصوّر كليٍّ عامٍّ للصرف العربي، يعتمد الأصول القديمة التي انطلق منها الصرفيون العرب، ويقتبس من النظريات الحديثة قَبَساتٍ متنوّعة يفيد منها في ربط القديم بالحديث، وفي إبراز الأسس التي يلتقي عليها الاثنان.

وسننتقل، في هذا الفصل والفصلين اللّذيْن يليانه، إلى مستوى آخر، هو المستوى النحويّ، الذي ترتصف فيه الأبنية ضمن تراكيب مخصوصة، وتترابط ببعضها في علاقات محددة، تحددها المعاني النحوية التي تتحقق في تلك التراكيب. وسنحاول في هذه الفصول أن نوضح دور البنية الصرفية في صوغ التراكيب النحوية المختلفة، وفي وضع تصوّرٍ مجرّدٍ للظاهرة النحوية، قائم على الربط بين عناصر المستوى النحوي، وعناصر المستوى الصرفي.

ويجدر بنا، قبل أن ندخل في تفصيلات العلائق بين المستويين الصرفي والنحوي، أن نحدد المصطلحات التي يقوم عليها المستوى النحوي، والتي يمكن أن نحصرها في المصطلحين التاليين:

أولاً: الظاهرة النحويّة:

يرتبط مصطلح «الظاهرة النحوّية» بكلمة «النحو»؛ لأن كلمة «الظاهرة» ذات مدلول عام لا يتحدد إلا بالصفة بعدها؛ لذلك يتعيّن علينا أن نحدّد مدلول «النحو» لنصل، بعد ذلك، للأبعاد الدلاليّة التي يعبّر عنها مصطلح «الظاهرة النحوّية».

ـ «النحو» في اللغة: القصد والطريق. يقال: نحوتُ نحوَاكَ أي قصدت قصدك[1].

ـ وأما في الاصطلاح فقد حدّه ابن جنّي بأنه: «انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره؛ كالتثنية، والجمع، والتحقير، والتكسير، والإضافة، والنسب، والتركيب، وغير ذلك؛

(١) انظر: لسان العرب. . مادة «نحو».

ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رُد به إليها»[1]، فلا يقتصر النحو عنده على وصف التراكيب في العربية، بل يتعداه ليشمل الإعراب والتركيب والبنية[2].

فكأنّ النحو، عنده، علمٌ يجمع بين مستوى البنية ومستوى التركيب، وهذا ما صرّح به أبو حيّان تصريحاً لا لبس فيه؛ إذ يقول: «علم النحو مشتمل على أحكام الكلمة. والأحكام على قسمين: قسم يلحقها حالة التركيب، وقسم يلحقها حالة الإفراد. فالأول قسمان: قسم إعرابي، وقسم غير إعرابي. وسمي القسمان علم الإعراب تغليباً لأحد القسمين. والثاني أيضاً قسمان: قسم تتغير فيه الصيغ لاختلاف المعاني، نحو: ضرب، وضارب، وتضارب، واضطراب، وكالتصغير، والتكسير، وبناء الآلات، وأسماء المصادر، وغير ذلك. . . ، وقسم تتغير فيه الكلمة لا لاختلاف المعاني كالنقص، والإبدال، والقلب، والنقل، وغير ذلك»[3]، ويكاد هذا التعريف يطابق ما تعارف عليه علماء اللغة المحدثون؛ إذ يرون أن علم النحو ينتظم قسمين رئيسين[4]:

ـ المورفولوجيا (morphology) : وهو ما يقابل علم الصرف، الذي يعنى بدراسة بنية الكلمات، كما بيّناه قبل ذلك.

ـ السنتاكس (syntax) : وهو ما يقابل علم النظم، الذي يعنى بدراسة التراكيب، والعلاقات بين عناصر الجملة، والقواعد التي تحكم تعاقب تلك العناصر وترتيبها.

ولكن على الرغم من إدراك القدماء هذا الأمرَ، وتصريحهم به تصريحاً مباشراً، كما رأينا عند ابن جنّي وأبي حيّان، فقد خصُّوا كلمة «النحو»، في أغلب الأحيان، بالدلالة على القسم الثاني من القسمين اللذين ينتظمهما هذا العلم؛ أي ما يتّصل بنظم الكلمات في التراكيب، وتعيين العلاقات بينها. وازداد هذا الاختصاص رسوخاً بعد أن ألّفت في الصرف تصانيف مستقلّة، فأصبح استخدام كلمة «النحو» للدلالة على معرفة أحكام تركيب الكلمات في الجمل ونظمها وفق قواعد العربية استخداماً مطّرداً مفهوماً، لا يكاد يُلْبس. لذلك نرى أنّ الاقتصار على استخدام كلمة «النحو» للدلالة على العلم الذي يدرس العلائق بين الأبنية، وطرق نظمها وتركيبها، وقواعد ضمها وتأليفها في تراكيب صحيحة تقبلها اللغة المدروسة ـ له ما يسوّغه ويرجحه.

---

(١) ابن جني. . الخصائص ١/٤٣.

(٢) انظر: نهاد الموسى. . نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) السيوطي. . الهمع ٦/٢٢٨.

(٤) انظر على سبيل المثال: Bloofield. London: Language, Holt, Rinehart and Winston, New York, P 184

وبناء عليه فإننا سنتناول في هذا الجزء من الدراسة المستوى الذي تنتقل إليه الأبنية الصرفية بعد تصنيفها وتقسيمها ووصفها؛ لتتخذ فيه أوضاعاً مخصوصة تعبّر عن معانٍ محدّدة تعيّنها طبيعة التراكيب اللغويّة الصحيحة في اللغة المدروسة، وهذا هو المستوى الثاني من المستويين اللذين تضمهما «الظاهرة النحويّة». فـ«الظاهرة النحويّة» تتضمن جميع الأشكال اللغوية التي تبنى منها الجمل في لغة ما[1]، بغض النظر عمّا تحمله من دلالات ومعانٍ معجميّة. فكأن «الظاهرة النحوية» أو المستوى النحويّ هو الهيكل البنيوي للغة المدروسة، الذي تُعْرَض فيه الروابط والعلاقات بين الوظائف النحويّة المجرّدة، والمواقع المختلفة لكل وظيفة، وتبحث فيه، كذلك، الشروط الصرفيّة لكل وظيفة من الوظائف السابقة، وهذا ما سنحاول أن نبيّنه في الفصل القادم، إن شاء الله تعالى.

وكما تألّف المستوى الصرفي من وحدات صغرى تمثله وتعبّر عنه، وهي ما اصطلحنا على تسميته بالبنية الصرفية. فإن المستوى النحويّ، كذلك، يتألّف من وحدات صغرى تمثل في مجموعها الهيكل العام المجرّد للأصول النحويّة التي يقوم عليها هذا المستوى. وهي ما يعرف، عادةً، بـ«الوظيفة النحويّة»، وهي المصطلح الثاني الذي تقوم عليه الدراسة في هذا الباب.

ثانياً: الوظيفة النحويّة:

يرتبط مصطلح «الوظيفة النحويّة» بعدة مصطلحات أخرى كـ«المعنى الوظيفي»، و«المعنى النحوي»، و«المعنى الداخلي»، و«المعنى البنيوي»، وكلّها تعبّر عن مفهوم واحد[2]، فهي تمثل المعنى الذي تكتسبه الكلمة داخل السياق، أي المعنى الناتج عن وضع الكلمة في علاقة مخصوصة مع سائر الكلمات في الجملة، وهذا المعنى يقابل ما يعرف بـ«المعنى المعجمي»: وهو معنى الكلمة خارج السياق النحويّ، أي معناها كما يرد في المعجم؛ فالكلمات: نال، مجتهد، جائزة لها معانٍ خاصةٌ بها نجدها في المعاجم اللغويّة، ولكنها لا تمتلك أيّ معنى نحوي، أي لا تؤدي أيّ وظيفة نحوية؛ لأن الوظائف النحوية لا توجد إلّا في تراكيب مخصوصة وأوضاع معيّنة، فإذا رُتِّبَتْ الكلمات السابقة في تركيب لغويّ صحيح اكتسبت معاني نحوية تحددها طبيعة التركيب الذي ترد فيه؛ وذلك كقولنا: نالَ المجتهدُ جائزةً. ففي هذا التركيب أدّت كلمة (مجتهد) وظيفة نحوية معروفة في العربية، وهي وظيفة الفاعل، وكذلك كلمة (جائزة) فقد أدت وظيفة

---

(١) انظر: تشومسكي. . البنى النحوية ١٣ . ترجمة يؤيل يوسف عزيز. مراجعة مجيد الماشطة. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. ط١ . ١٩٨٧م.

(٢) انظر، مادة «meaning» عند R.R.K. Hatman & F.C. Stork. Dictionary of Language and Linguistics ومادة «grammatical meaning» عند: رمزي منير بعلبكي في معجم المصطلحات اللغوية. دار العلم للملايين. ط١، ١٩٩٠.

المفعول به، وهكذا أصبح لكل كلمة من الكلمات السابقة معنى نحوي أو وظيفة نحوية تؤديها ضمن التركيب الذي وردت فيه. وعندما يتّحد المعنى المعجمي بالمعنى النحوي يتكون عندنا المعنى العام للجملة أو المعنى الدلالي الذي يريد المتكلم أن يوصله للسامع، فإذا مثّلنا للعلاقة بين المعنى المعجمي والمعنى النحـوي برسم تخطيطي فإننا نستطيع أن نضع الأول منهما في مستوى رأسي يمثل كل الكلمات الواردة في اللغة المدروسة، ونستطيع أن نضع الثاني في مستوى أفقي يمثل كل الوظائف النحوية المتاحة في تلك اللغة، وستمثل النقاط التي يلتقي عندها المعنى المعجمي بالمعنى النحوي كل الجمل الصحيحة التي يمكن تكوينها حسب نظام تلك اللغة. كما في الشكل التالي:

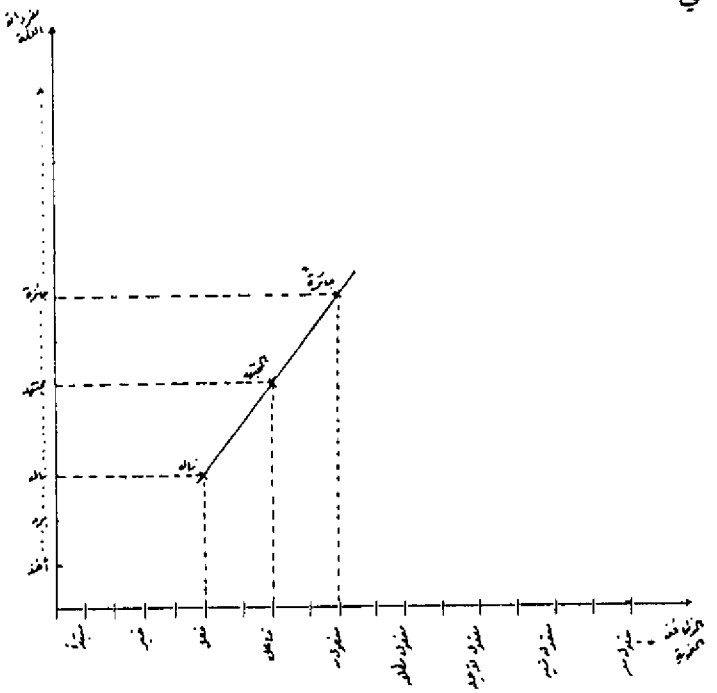

(يلاحظ أن الخط الرأسي يضم، إلى جانب الكلمات ذات المعاني المعجمية كالأسماء والأفعال، الأدوات والحروف)

ولكن هذه الدراسة لا تبحث في العلاقة بين المعنى المعجمي والمعنى النحوي، بل تدرس العلاقة بين المعنى الصرفي والمعنى النحوي؛ أي بين أنواع الكلمات، بغض النظر عن معانيها المعجمية الخاصة، والوظائف النحويّة التي يجوز أن تؤديها في تراكيب اللغة العربية، فإذا استبدلنا بالكلمات الموضوعة على الخط الرأسي في الشكل السابق أنواع الأبنية في العربية تكوّن لدينا مخطّطٌ توضيحي للعلاقة التي سندرسها ضمن الفصول القادمة.

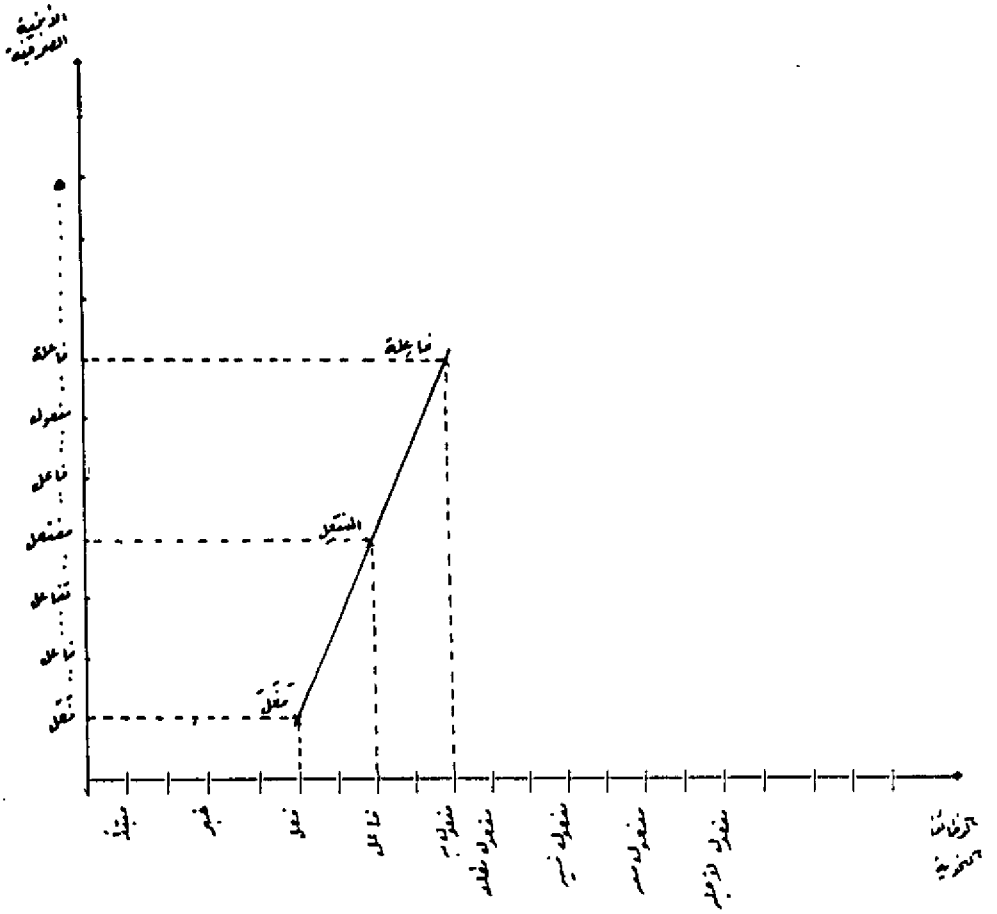
الوظيفة
الصرفية
تفاعلية
مفعولية
فاعلية
مفتعلية
تفاعلية
انفعالية
انفعالية
المستقبل
تفاعلية
انفعالية
فعل
فاعل
مفعول مطلق
مفعول فيه
مفعول معه
مفعول لأجله
الوظائف
النحوية